



مسار "الثورة" في الخطاب الشعري الجزائري بين الحضور والغياب

The "Revolution" Trajectory in the Algerian Poetic Discourse: between Presence and Absence

أمنية رويح¹

¹ جامعة محمد ملين دباغين سطيف 2 (الجزائر)، om.rouibah@univ-setif2.dz

ملخص:

تعدّ الثورة من المواضيع التي أحدثت تطوّرًا جديدًا في مفهوم الأدب، حتى إنها نسبت إلى أدب خاصّ بها: أدب الثورة/ أدب المقاومة. وفي الجزائر ألهمت الثورة التحريرية الشعراء، وأذكت قرائحهم منذ اندلاعها، فجمعوا بين النضال والإبداع، واستمر تأثيرها إلى ما بعد الاستقلال. استنادًا إلى ما سبق تهدف هذه الدراسة إلى تتبّع موضوع الثورة عبر ثلاث محطات رئيسية: قبل وأثناء، وبعد الثورة، كما تخلص إلى كشف العلاقة بين الأدب والثورة، ورصد مختلف الخصائص الفنية لكل فترة زمنية.

كلمات مفتاحية: لشعر الجزائري، القصيدة الثورية، أدب المقاومة، محطات الثورة، الثورة الجزائرية.

Summary:

The Revolution is one of the topics that brought about a new development in the concept of literature, to the point that it has given rise to a distinct genre: revolutionary literature/resistance literature. In Algeria, the Liberation Revolution inspired poets and kindled/ignited their creative faculties since its outbreak; thus, they combined struggle with artistic creation, and its influence continued even beyond Independence. Based on the above, this study seeks to trace the Revolution theme across three main phases: before and during the Revolution, and after the Revolution. It also attempts to reveal the relationship between literature and the Revolution, and to identify the various artistic characteristics of each time period.

1. مقدمة :

كان الشعرُ ولا يزال الوعاء الذي يصبّ فيه المبدع تجاربه ورؤاه في الحياة _ بتقلّباتها وتناقضاتها _، من خلال سعيه لترجمة ذاته وتسجيل اللحظات الفارقة في الوجود، هروبا من وإلى الحتميات التاريخية والاجتماعية والسياسية. وقد عرفت الساحة الأدبية الجزائرية نماذج كثيرة لشعراء سخّروا شعرهم لقضايا قومهم وأمتهم، لعل أعظمها على الإطلاق هو اندلاع الثورة التحريرية الكبرى، وتضحيات الشعب الجزائري من أجل افتكاك حريته، فكان شعر الثورة سلاحا روحيا فريدا من نوعه وفعّالا في وجه المستعمر الفرنسي الغاشم، استطاع عبره الشعراء الجزائريون مزج عبقريتهم وروحهم الثورية بالروح الأدبية، ليجمعوا بذلك بين النضال والإبداع، فكان حبرهم دم الشهداء، وأقلامهم قذائف الثورة، وكلماتهم طموح شعب كسير، معتبرين أن شعرهم يتعدّى حدود الكلمات الإبداعية إلى رسالة نضالية كبيرة، حاملين على عاتقهم لواء الدفاع عن الوطن والمبادئ التي قام عليها ومرتكزات الهوية الوطنية. وبهذا استطاعت الثورة أن تقتحم النصوص الشعرية الجزائرية، وتبدّد الكآبة التي عرفها الشعر الجزائري في المرحلة السابقة، ونقصد بها حالة الضمور الفئّي والتغريب الحضاري الذي فرضه المستعمر.

انسجاما مع تراتب الأولويات يطفو سؤال الماهية فارضا نفسه؟ فما الأدب الثوري؟ وما مقاصده التي بني عليها؟ وهل يقتصر على المزامنة التاريخية للثورة فقط، أم أنه يتضمّن كل شعر يتحدث عن الثورة _ وإن لم يكن مزامنا _ ليعدّ أدبا ثوريا؟ ثمّ ما علاقة الوصل بين الأدب والثورة؟ وكيف أثّرت هذه اللحظة التاريخية الفارقة على الشعر الجزائري عبر مساره الكرونولوجي؟

إننا نفترض بداية أن شعر الثورة خطاب ذو بعد أنطولوجي/ فلسفي، بما يحمله من تشكيلات فنية، ورؤى شعرية تصبّ جميعا في حقل الثورة، فهو أبعد من أن يكّمم الأفواه أو يستنفر الأقلام بعد اندلاع ثورة ما، فالشعر الثوري عموما والجزائري خصوصا تتبع هذه الثيمة (الثورة) منذ بواورها الأولى، وتابع مسيرتها وظلّ يشيد ببطولاتها حتى بعد الاستقلال، ولا نزال إلى يومنا هذا نحني ذكراها بخطابات شعرية ثرة تُلقى في المحافل الوطنية وغيرها.

وسعيا إلى الكشف عن طبيعة العلاقة بين الأدب والثورة، والوقوف على الخطاب الشعري الجزائري وتحولاته أثناء الثورة التحريرية نجد أنفسنا ملزمين برصد هذه التحولات عبر ثلاث محطات رئيسية: قبل، أثناء، وبعد الثورة.

تحقيقا لهذا المقصد تقتضي منا هذه الدراسة المنهج الاستقرائي الوصفي (الناقص) باعتماد بعض النماذج الشعرية لنعمّم نتائج التحليل على عموم القصيدة الثورية الجزائرية، كما استعنا بالمنهج التاريخي في حديثنا عن المراحل التي مرّ بها الخطاب الثوري، وفي سياق تفسير بعض المواقف والأحداث التاريخية.

2. مفهوم القصيدة الثورية

إنّ الحديث عن "القصيدة الثورية الجزائرية" يحيلنا إلى الدور الذي أداه الأدب - وبالأخص الشعر - فترة اندلاع الثورات، فهو الأدب الذي عبّر عن خلاله أدباء الجزائر عن مأساة الاحتلال الاستيطاني، وما ترتّب عليه من قمع سياسي، وتغريب حضاري دام 132 سنة، اتخذ من تيمة "الثورة" خلفية يقوم عليها النص الشعري، بكلّ وعي وعمق في الرؤية، فدعا إليها بكل ما تحمله دلالتها اللغوية من الهيجان¹، وبتعبيرها الاصطلاحي الدقيق الموحى بالتغيير الشامل²، ووثّق أحداثها، واحتفى بثوارها.

ولا يخفى على أحد أن الأدب كان الشرارة الأولى التي انبثقت منها الثورات الكبرى، فالشعر هو فنّ الذبوع والانتشار، لما يحتويه إيقاعه الموسيقي من اختيار رصين للكلمات وطريقة محكمة في وضعها، وقدرة سلسلة في الانتقال من الفم إلى الأذن إلى القلب. "ولعلّ شعر الحب وشعر الحرب يأتيان في مقام الصدارة في قائمة الأشعار القادرة على الذبوع والانتشار، فكلاهما يعتمد على حرارة الانفعال التي يسهل انتقالها بالعدوى إذا كان المناخ العام والخاص يرئ المجتمع والأفراد لهذه العدوى"³. بل هو في جوهره أسلوب حياة كما يقرّه "أرسطو" «ARISTOTLE» من خلال قوله: "هو تصوير الناس، وهو الذي يكشف معادن الناس، ويخرجهم من غرقهم في المصالح الضيقة، ويقهر الاغتراب، ويبرز التضامن الإنساني ويبث القيم الجديدة، إن الشعر ليس مجرد نوع أدبي بل هو أسلوب في الحياة ومحاولة لإيجاد الإنسان، فالشعر دائما حرب والشاعر دائما هو المحارب."⁴

ويعدّ الشعر الثوري _ الجزائري _ بادرة قويّة في تأجيج أتون الثورة؛ إذ استطاع أن يحمل تحريضاتٍ على الثورة والانتفاضة الكبرى، وأن يوشح الخطابات بصبغة التفجّر الوطني والمضمون الحماسي.

يقول "محمد العيد آل خليفة":

ثورةُ الشعر أنتجت ثورةَ الشعب وعادت عليه بالآلاء⁵

ويقول "علي بن صالح":

فكم رفع الشعرُ الحماسي أمة
وكم أشعلت حرباً شرارةُ شاعر
لها في بطون الغابرين صدى الخبر
يشيب لها رأس الصغير من الذعر⁶

ومن بين ما اصطلح على تعريف الشعر الثوري ما قدمه "أدونيس" بقوله: "إذا كانت الثورة تغييراً شاملاً لبنية المجتمع، فإن الشعر الثوري أو شعر المقاومة هو الصورة، بل صورته العليا لهذا التغيير... -ويضيف- إن الشعر الثوري أو شعر المقاومة هو الشعر الذي يواكب المقاومة، بل ويتفّن بها ويستظل بظلالها... إن شعر المقاومة الحقيقي هو الذي يخلق جبهة إبداع باللغة، تواكب جبهة الإبداع والعمل"⁷. هكذا تعدّ الثورة من المواضيع التي أحدثت تصوّراً جديداً في مفهوم الأدب حتى أنها تُسببت لأدب خاص بها (أدب الثورة، أدب المقاومة) وجعلت صلة قوية بينهما وعلاقة مطّردة تنعكس على كليهما.

فبين الأدب والثورة إذاً علاقة تأثير وتأثر؛ "فالأدب يدعو إلى الثورة والتغيّر، والثورة تغيّر من مفاهيم الأدب وشخصياته وروّاده"⁸. وليس هناك ثورة دون أدباء _ يمثلون ضمير شعبها _ فكما أن الشاعر والنّاثّر إنسان واحد، كذلك الشعر والثورة فعل واحد، وهذا ميسم العلاقة بينهما، لأنهما ترافقا منذ القدم لتحقيق التغيير وإرساء قواعد الحرية.

ويذهب "عز الدين إسماعيل" للحديث هو الآخر عن الشعر الثوري من خلال الموقف الثوري الذي يرى فيه التمرد في الاتجاه الإيجابي عبر قوله: "...الموقف الثوري إنّ هو إلا تمرّد إيجابي على الواقع ومحاولة لتغييره، فالثورة تخرج دائماً من عباءة التمرد"⁹.

بناءً على ما سبق فإن الثورة مصطلح انفعالي بالدرجة الأولى، ويعني التمرد على ظروف متردّية، أو مقاومة مستعمر مستبد، كما أنه بلا أدنى شك صوتٌ كفاح قوي يدافع عن الثورة باللسنة الشعراء الذين نسميهم "شعراء المقاومة"؛ الذين لا يقل دورهم أهمية عن

دور المقاومين بالسلاح. ويبقى عنف الثورة أقوى من بيان الفن كما يقال، ولغة القنابل أبلغ من أحرف الوثائق.

3. مسارات تحوّل الشعر الثوري الجزائري

1.3 الإرهاص الثوري/الضمور الفني:

إنّ المتتبع لمسار الشعر الجزائري يجده قد طُبع في بادئ الأمر بطابع اليأس والتشاؤم، نتيجة عقدة النقص التي أصابت الشعب الجزائري في ظل وجود الاحتلال الفرنسي، وفي هذا يقول "الزاهري" صاحب كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر":

ضقت ذرعا برحب هذا الوجود وبقوم طول الزمان رقود
أوجه مثل أوجه الناس لكن خشب من خلالة وخمود¹⁰

فقد تفتّح وعي الشاعر الجزائري على نكسة حتمية، وواقع مرير، سلب أحلام الشعب، فكان لزاما عليه. وهو المثقف المتعلم ذو الحس القومي. أن يُسخر أدواته الفنية لقضايا وطنه، معتبرا شعره رسالة نضالية، حاملا على عاتقه أمانة استنهاض الشعب الجزائري نحو التحرير. فأخلص لها إخلاص الصوفي، ولا نكاد نجد الشعراء قد اهتموا بغير الهم الوطني. ولهذا دعا الشاعر "إبراهيم بن الحاج عيسى" الطبقة المثقفة سنة 1920 إلى المثابرة دونما كلل أو ملل لإيقاظ الشعب الجزائري الذي خدّره الجهل، ومزّقه الضياع، فهي دعوة إلى العلم والتّعلم، ودعوة إلى استنهاض العقول ودفع اليأس:

يا ساسة الأفكار قمتم بالذي يدعو إليه الوقت والحاجات
لا تسأموا لا تيأسوا لا ترهبوا بل ثابروا فأمامكم جنات
جدّوا واعملوا وتكاتفوا فبذي الصفات تذللّ العقبات
سوسوا العقول بحكمة وتبصّر فلزلة تمحى بها الزلات
ذودوا على كل الحياض بكلكم عزما فأنتم للجميع حماة¹¹

لا غرو أن الشعب الجزائري سنة 1920 كان أبعد من أن يستجيب لأية دعوة للنهوض أو التغيير، كذلك كان الشاعر الجزائري لا يجرؤ على التصريح بأية دعوة للتثوير، نظرا للمضايقات الشديدة التي كان يمارسها الاستعمار ضدّ كل صوت معارض، الأمر الذي

حدا بشعراء فترة العشرينيات إلى اتباع أساليب التّقية والمواربة والرمز والإشارة والإضمار والإيحاء، والتعبير عن أفكارهم بصورة غير مباشرة.

يقول "محمد العيد آل خليفة":

أين (ليلاي) أينها	حيل بيني وبينها
هل قضت دّين من قضى	في المحيّين دّينها
أصلت القلب نارها	وأذاقته حينها
مذ تعرّفت سرها	وتعشّقت زينها
كم تساءلت سالكا	أنهجا ما حوينا
لم يجيني سوى الصدى	أين ليلاي أينها؟ ¹²

والظاهر في القصيدة أنها قطعة غزلية، تروي عذاب الشاعر في حبّ امرأة، ولكنه فهم قاصر جدا، فالظروف السياقية التي كانت تعيشها الجزائر لا تتناسب والغرض الغزلي الذي يتبادر إلى ذهن القارئ للوهلة الأولى، إضافة إلى أن الشاعر "محمد العيد آل خليفة" ذو نزعة إصلاحية، ومن رواد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الإصلاحية، وقد تأسس الشاعر على الثقافة السلفية التي تقوم على العودة إلى المقومات الثقافية الإسلامية، كما صرح وهو البلبل المغرد في القفص _ بأن لا يفتنه شيء إلا الحرية. والمعنى الذي يريده الشاعر بتناصه مع الرمز التراثي العربي "ليلي العامرية" هو "الحرية" التي ينشدها ويتغزل بها تحت ظروف قاهرة فرضها الاستعمار، ولا غرو أنها رؤية نضالية أكبر من أن تنحصر في البكاء بين يدي امرأة. ولذلك لم يحفل كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" لـ "محمد الهادي السنوسي" بقصائد في الأغراض الذاتية (الرثاء، المديح، الهجاء...) معلّلا ذلك بقوله "أخرجت هاته المواضيع لما بينها وبين الحقيقة اليوم من التباين... والجميع في الأكثر لا يفيدنا معنى اجتماعيا، ولا غيره، وعلى الأخص في بيتتنا".¹³

وعلى مستوى بناء القصيدة في هذه الفترة تسير إلى طغيان أسلوب التشطير والتّخميس وشحذ الأذهان؛ "وهو أسلوب يتّضح من خلاله التواطؤ الضمني بين الصحف والشعراء، والقصد منه التحايل على الرقابة، وإضاعة الفرصة عليهما"¹⁴ ومثال ذلك ما نشره الشاعر "الأمين العمودي" بجريدة "العصر الجديد"¹⁵ التونسية، استجابة لدعوتها التي طلبت من الأدباء تشطير بيتين لإمام الشعراء حافظ إبراهيم.

"وأخبر منك آثار الجدود	"وخبرهم وأنت بنا خبير"
"بأن الذلّ شنشنة العبيد"	وقل جهرا لدى الأحرار واشهد
ولو قرعت بأسواط حديد	"وأنّ نفوس هذا الخلق تأبي"
"لغير الإلهما ذلّ السجود" ¹⁶	وذاقت ما أتاها من عذاب

السبب الذي حمل العمودي على المشاركة في تشطير بيتي الشاعر "حافظ إبراهيم" يتعدى ما يتبدى لنا من غرض النشر وتلبية دعوة الجريدة، بل استغل الفرصة لهزّ النفوس والدعوة إلى رفض الذل وكسر الأغلال. وكأنه يستشرف أو يطرح رؤى متوارية تستنفر الهمم وتحفّز الطاقات، ويقوم بعملية الإعداد الفكري للمناضل الجزائري، والتنبيه إلى ضرورة التخلص من أوضاع مؤلمة، الأمر الذي يزرع بذور الثورة في الشعب. ومن هنا نشيد بما حقّقه جريدة العصر الجديد من فوائد جمّة سنحت للشعراء الإفصاح عن مكبوتاتهم الوطنية. وبدايةً من سنة 1924 بدأ الشعر الجزائري التخلص من أسلوب التشطير والتخميس خاصة بعد سنة 1936 ليعوضه بأسلوب الاستنهاض المباشر، لاسيما عند الشعراء المهاجرين إلى تونس كما نجده عند الشاعرين: "السعيد الزاهري" و"مفدي زكريا"، إذ كانا شاعرين استنهازيين تحريضيّين، ولكلّهما صوت جهير يحاول هزّ ركود الشعب وكسر صمته العظيم. يقول "مفدي زكريا":

أيها الشعب وثبة للمعالي	أيها الشعب لا تكفّ النزلا
اترك الاعتماد إلا على النفس	س وخلّ الأقطابا والأبطال
ذا بلال الحياة أذن في الشر	ق إلى الحياة بلالا
كتب النصر في الحياة سجالا	للذي صارع الخطوب سجالا
عشت يا شعب مسلما عربيا	نلت يا شعب بغية ومنا ¹⁷

مرّ شعر الاستنهاض الذي نُشر بتونس من مرحلة الرّمز والإيحاء إلى مرحلة النصّ والإرشاد، ومن ثمّ إلى مرحلة الثورة.

ومع هذا "ظلّ الخطاب الشعري الجزائري مكظوما حيال الثورة، وكلمات كالثورة والتحرير والاستقلال محظورة... إلى غاية أحداث الثامن ماي 1945 ومجازرها الفظيعة التي أعقبت مطالبة الشعب باستقلاله الموعود، في مظاهرات حاشدة، حينها أدرك

الشعب أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.¹⁸ وعليه فإنَّ المرحلة الأولى في الحركة الشعبية بالجزائر هي مرحلة الإِتباعية، امتازت بالبكاء والحسرة على أوضاع البلاد، وتعبئة الجماهير.

2.3 انتفاضة القرائح/ تجديد النفس الشعري:

بعد مأساة (08 ماي 1945) حدث تحوّل ملحوظ في الحركة الوطنية الجزائرية، علّمت الشعب الجزائري كيف يتأهّب ليوم الثأر من أجل استعادة كرامته ومجده التّليد، فكانت الشرارة الحقيقية لاندلاع الثورة التحريرية في فجر الفاتح من نوفمبر 1954م، معلنة ميلاد إنسان جديد، وبداية مرحلة جديدة في حياة الشعر والفكر.

يقول "محمد العيد آل خليفة":

يا قوم هبّوا لاغتنام حياتكم	فالعمر ساعات تمر عجالا
الأسر طال بكم وطال عناؤكم	فكّوا القيود وحطّموا الأغلالا
والشعب ضجّ من المظالم فانشدوا	حرية تحميه واستقلالاً ¹⁹

فانتقل من التّلميح المعهود إلى التّصريح، بطريقة تصويريّة أكثر جلاء وتوضيحا، وصدح صوتُ الثورة المسلحة بقوة، ولعلّ صوت البارود من جبل الشّلع لفتجاوبت معه جبال "جرجرة" وشبّت في ذرى "وهران" نار الثورة فاستجاب لها "برج مدين" هو الآخر، ورّدّد كل شبر من هذا الوطن:

من جبالنا طلع صوت الأحرار	ينادينّا
ينادينّا للاستقلال	استقلال وطننا
تضحيتنا للوطن	خير من الحياة
أضحى بحياتي	وبمالي عليك ²⁰

فهذا النّشيد يدعو الجماهير إلى الالتحاق بالجبال كمركزٍ للصّمود وللّكفاح، كما سجّل العيش في قمم الجبال تحت الثلوج الغامرة، والشموس الحارة، في مناهضة مستمرة للعدوّ الماكر الغاشي، ووصفٍ دقيق للحياة في غياهب السجون المظلمة، ومكابدات جيل بأكمله من الشعراء أثناء الثورة المسلحة، كانوا قد اكتووا بنارها وذادوا عن حماها ورفعوا لواءها. في ظلّ هذه الظروف القاهرة لم يكن لهؤلاء الوقت الكافي لتنميق قصائدهم

وترصيعها، بل كانوا مستعجلين كالخائف المتربص ينتظر مباغتة رصاصة قاتلة، ومع ذلك كانت أشعارهم نابضة بالثورة ملتهبة حماسة وقوة وتحديا للمستعمر.

تلك هي الظروف التي كُتبت فيها هذه النماذج، ويمكن القول إنها كُتبت تحت مقصلة لا تعرف الرحمة، فهذه الأشعار جزء من الثورة، والثورة هي التغيير بحد ذاته، لذا على القارئ أن يقرأ الشعر المكتوب أثناء الثورة بترتّب وبعُمق.

وفي خضمّ الكتابة الثورية وإثر مناسبة اندلاعها في الفاتح من نوفمبر 1954 - يوجّه الشاعر "أبو الحسن علي بن صالح" دعوة حارّة إلى الفدائي الجزائري "واصل الحرب يا ابن شعبي" محيّا رجالا صال بهم الكفاح أعالي الأوراس وجاب، فغدوا أكثر بأسا، وأشد فتكا.

حيّ في الأطلس الأشمّ رجالا	بهم صال في الكفاح وجالا
صنعتهم يد الظلوم وقدا	صنع الظلم قادة أبطال
ثورة في الظلام أعلنها الشع	ب فباتت بها الليالي حبال
ومواليدها موأقف أحرار	تفانوا بسالة ونضالا
بايعت صاحب البلاد وعقّت	أجنبيا أقام داء عضالا
تصنع الفجر كل مطلع فجر	بدم في العلا أريق وسالا ²¹

أمّا "مفدي زكريا" فإن ليلة نوفمبر لديه هي ليلة القدر الكبرى، أنزلت على المستعمرين شواظا من نارٍ أحرق جبروتهم، وأخرجت الجزائر من المرحلة السياسية إلى المرحلة الثورية، فغدت بمثابة الفيصل بين ظلام وطأة الاستعمار وبين نور الحرية والاستقلال، وغيره كثير من الشعراء ممّن بايعوا هذا الشهر الثوري بكل إيمان وإباء، إذ احتكموا إلى العقل الثوري من أجل قضية مقدّسة ألا وهي حرية الوطن.

وهل سمع المجيبُ نداءً شعبيّ	فكانت ليلةُ القدر الجوابا ؟
تبارك ليّلك الميمون عن ألف شهر	قضاها الشعبُ يلتحف السّرابا ²²

والملاحظ أن شعر هذه الفترة حصّد كمّا هائلا من القصائد، وسجّل أسماء شعراء كثير - تميّزت أصواتهم في الحركة الشعرية - بعد أن أمّدتهم الثورة بمعين خصب، من بينهم: محمد السعيد الزاهري، أبو اليقطان بن الحاج عيسى، أحمد سحنون، الهادي السنوسي، أبو القاسم سعد الله، أبو القاسم خمار، محمد الصالح باوية... ارتبطوا بالثورة ارتباطا

تفاعليا، إذ أنهم يرون فيها "صخبيا لجيا، مجلجل النبرة، قوي الإيقاع يقرع الأذان بألفاظه الجزلة وتعابيرته التي تندرج تحتها المبالغة والتهويل باعتباره يعتمد على أسلوب الجهر أكثر من أصوات الهمس التي تعبر عن المواقف الرومنسية" سواء الشعر العمودي أو الشعر الحر²³.

أما من حيث الكيف فقد سجّل الشعر الجزائري الثوري نقلةً نوعيةً تحرّر فيها من قيود الجموح، فتعدّدت المواضيع: من المدح، إلى الرثاء (فلم تقل إلا في حقّ من قدّم الغالي والنفيس خدمةً للبلاد والعباد)، والغزل (وقد ارتبطت معانيه بعواطف الشعب) وأدخل الفلسفة في شعره، وجدّد الأوزان، فلم يعد مدحا متكسّبا ولا رثاءً مرثيا ولا نسيبا كاذبا ولم يعد سبكا لفظيا ولا زينة بديعية، فهو في الطريق نحو النضج والاكتمال الفني²⁴.

من هنا صار الخطاب الشعري يدعو للتفاؤل والحرية، فشعراء الجزائر وشعبها اختاروا طريقا واحدا: إما أن نكون أو نكون. كما قال "صالح خباشة":

قل للطغاة ألا إن الحروب مضت	مهزومة أبدا ولسلم منتصر
أنا سننتصر والأيام شهادة	أنا الشعوب على الطغيان تنتصر
نحن الشعوب كفرنا بالقنابل فهي	السحق للكون ونبقى ولا تذر
أنا سننتصر والأيام شهادة	أنا الشعوب على الطغيان تنتصر ²⁵

فالمرحلة الثانية من الحركة الشعرية بالجزائر إذا انبرت لشؤون الثورة، ورافقتها طيلة أحداثها، وساهمت في تجديد النفس الشعري.

3.3 تحقّق الحرية/ تحقّق البعد الفني والجمالي:

كلّلت الثورة الجزائرية بالانتصار في 05 جويلية 1962 بعد تضحيات جسيمة أشاد بها كل العالم، لما جسّدته من عطاء وتضحية في سبيل الحرية والاستقلال، وتطهير الوطن من الغزاة، وقد استمرّ حضور الشعر الثوري إلى ما بعد الاستقلال، متغنياً بأمجاد الوطن ومخلّدا تاريخها، فنُظمت القصائد وتجددت مع كل ذكرى ليوم الاستقلال وعيد النصر. يقول الشاعر:

عيدُ الفداء كسا الأوراس بردته الحمرا	وطرّزها درّا ومرجانا
فيه رصاصتنا الأولى قد انطلقت	كيما تحطّم للطغيان بنيانا

أيا (نوفمبر) هل أشجتك حالتنا	وما نجرعه ظلما وعدوانا
كنا وحقك نحسو الظلم مترعة	كؤوسة ونسام الخسف ألوانا
فقطرنا قد غدا (فيلا) مزخرفة	للأجنبي وصرنا فيه عبدانا ²⁶

تعدّ هذه الفترة فترة التغيير والتحويل، إذ نجدُ حركيّة قادها كوكبة من الشعراء الذين حاولوا التخلّص من القيود السياسية ليجدوا حريةً في بثّ أفكارهم وإبداعاتهم، ومحاولة استشراف آفاق جديدة "وكان من نتائج ذلك انفجار النص الشعري الجزائري المعاصر بسبب هذه الرغبة الملحة وخروجه عن الكثير من التقاليد التي كانت تحكمه وذلك بخلق نص شعري جديد يستجيب لشروط الحداثة. ويستوعب الواقع الثقافي والاجتماعي، بجميع خروقاته وانزياحاته"²⁷ بعدما فتحت لهم تجربة "سعد الله"²⁸ الطريق لاقتحام هذه المغامرة.

اتّسمت هذه المرحلة بغزارة الإنتاج الشعري، ونذكر من الشعراء: أبو القاسم خمار، أبو القاسم سعد الله، محمد صالح باوية، أحمد الغوالي وغيرهم كثير. وقد "وجد هؤلاء الشعراء في الشعر تنفيسا عن الرغبة العارمة في أن يكونوا بجوار المجاهدين على أرض الوطن فشحنوا كلماتهم بكل ما استطاعوا من صدى، بحيث أصبحت الكلمة لديهم تعبيراً عن الطلقة التي يوجّهها إخوانهم إلى صدور المحتلّين داخل الوطن، لقد أرادوا أن يساهموا مساهمة فعّالة في إنجاح الثورة حتّى لا تتعرّض للانتكاسات التي وقعت فيها الثورات السابقة لثورة نوفمبر"²⁹.

أظهر الخطاب الشعري الجديد تحكّماً في مستويات بنياته الفنية على غرار مرحلة الثورة التحريرية، كما عرف قصائد إبداعية مطوّلة، نذكر منها إلياذة الجزائر لشاعر الثورة مفدي زكريا سنة 1973، أبدع فيها معنًى ومبنيً، وكان الدافع إلى نظم هذه القصيدة ما ورد على لسانه: "الدافع على صنع هذه الإلياذة نابع من صميم إيماني بأمجاد الجزائر الماضية التي أعيشها بروحي وأمجادها بين العشرينات والسبعينات التي عشتها بكل كياني، وكان لي شرف التغني بها انطلاقاً من الأناشيد الوطنية العشر إلى هذه الإلياذة"³⁰ وعدد أبياتها ألف بيت وبيت تناصاً أو إشارة إلى ألف ليلة وليلة.

شغلنا الورى وملأنا الدنى

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر³¹

ونذكر أيضا قصيدة الشاعر "علي بن صالح" (بردة الثائر في أرض الجزائر) التي نظمها مباشرة بعد عام الاستقلال 1963، عدد أبياتها 132 بيت، بعدد سنوات الاحتلال الفرنسي، نسجها على منوال بردة "شرف الدين البوصيري".

نمق حديثك عن أحداث ثورتنا	وخلّ عنك حديث الركب في إضم
وارو الروائع من آي النضال ففي	الجزائر المعجزات الغرّ من قيم
واذكر مواطن جيران الجهاد، ودع	ذكرى مواطن جيرانٍ بذى سلم
فبالبطولات أحرزنا كرامتنا	تختال في شرف سام وفي عظم
بالتضحيات الغوالي حقّق الشعب ما	قد كان يبدو خيالا في سَمَا الحلم ³²

وعلى العموم فإن الشعر الثوري بعد مرحلة الثورة كشف مسيرة الشاعر الجزائري وتجاربه الثورية، ومعاناته بعد الاستقلال، واحتفائه بالمنجزات الكبرى في الجزائر، وطبع القصائد بطابع التفاؤل بدل التشاؤم الذي عُرِفَ في الفترة السابقة، فالشاعر الجزائري كان ثائرا، مناضلا، عقلا قلبا، وسلوكا؛ بشّر بالثورة وواكبها، ودفع ثمن الحرية غالبا. صفوة القول إن الشعر الثوري خدم الشعر الجزائري على مستوى الأسلوب واللغة والرؤية والشكل.

4. خاتمة:

تبين لنا من خلال التتبّع الكرونولوجي لمسار الثورة في الشعر الجزائري أن الخطاب الثوري لا يقتصر على المزامنة التاريخية فحسب، بل يشمل كل شعرٍ تحدّث عن الثورة وإن كان بعد الاستقلال..

ومن جهتها مرّت الحركة الشعرية في الجزائر بثلاث محطات رئيسية: "قبل الثورة"، "أثناء الثورة" و"بعد الثورة"؛ شهدت المرحلة الأولى اضمحلالا فنيا ونزعة تشاؤمية، نتيجة المضايقات التي كان يمارسها الاستعمار ضدّ كل صوت معارض، ليتحوّل مسار الحركة الشعرية إلى الجهر والتصريح والحث المباشر على الثورة، فأعلنت الكلمة وقوفها إلى جانب السلاح، وقد ساهمت هذه المرحلة الثانية بتجديد النفس الشعري في القصيدة الجزائرية. أما

المحطة الأخيرة فكان لها فعل توثيق مسيرة الشاعر الجزائري وتجارب الثورة والتغني ببطولات الثوار، وقد خدمت الشعر الجزائري على مستوى الأسلوب واللغة الشعرية وحتى الشكل (الشعر الحر). وفي الأخير نيب الباحثين والدارسين للاهتمام بالموهبة الأدبية الجزائرية، وتفعيل حركية التعامل معه بالمنهج النقدية المعاصرة.

5. الإحالات والهوامش:

¹ ينظر: ابن منظور، معجم لسان العرب، (ط1)، دار الحديث، القاهرة: 2013، ص 722-723. / ينظر: خليل توفيق مرسي، معجم الإرشاد، (ط1)، دار الإرشاد للنشر شركة ابن باديس للكتاب، سوريا: 2001، ص 75.
² ينظر: عبد الله ركيبي، الشعر في زمن الحرية، (ط1)، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر: 2009، ص 83 / ينظر: عبد المالك مرتاض، المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية، (د.ط)، دار الكتاب العربي، الجزائر: 2010، ص 45.

³ غالي شكري، أدب المقاومة، ج3، (د.ط)، دار المعارف، مصر: (دت)، ص 55.

⁴ عبد المنعم مجاهد، جماليات الشعر العربي المعاصر، (ط1)، دار الثقافة، القاهرة: 1997، ص 151-150.

⁵ محمد العيد آل خليفة، ديوان محمد العيد آل خليفة، (د.ط)، دار الهدى، الجزائر: 2010، ص 398.

⁶ أبو الحسن علي بن صالح، ديوان أبي الحسن علي بن صالح، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1984، ص 12.

⁷ نقلا عن عز الدين إسماعيل، قضايا الشعر العربي المعاصر، (د.ط)، المنظمة الوطنية للثقافة والعلوم، تونس: 1988 ص 48.

⁸ أحمد محمد عطية، البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة، (د.ط)، وزارة الثقافة السورية، سوريا: 1977، ص 27.

⁹ عز الدين إسماعيل، قضايا الشعر العربي المعاصر، ص 342.

¹⁰ أحمد سحنون، الديوان، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1980، ص 140.

¹¹ صحيفة المنير، 22 جويلية 1920. نقلا عن الجابري محمد صالح، الأدب الجزائري المعاصر، (ط1)، دار الجيل، تونس: 2005، ص 68.

¹² محمد العيد آل خليفة، ديوان محمد العيد آل خليفة، ص 41-42.

¹³ محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، (ج1)، (ط2)، دار بهاء الدين، الجزائر: 2007، ص 73.

¹⁴ محمد صالح الجابري، الأدب الجزائري المعاصر، ص 68.

- ¹⁵ صدرت سنة 1920 م لصاحبها أحمد حسين المهيري. وقد عُطِلت من طرف الإدارة الاستعمارية سنة 1924 لمواقفها الوطنية. ثم عاودت الصدور 1936 لكنها سرعان ما احتجبت.
- ¹⁶ صحيفة العصر الجديد، 13 سبتمبر 1920. نقلا عن الجابري محمد صالح، الأدب الجزائري المعاصر، ص 69.
- ¹⁷ صحيفة الشباب، 07 أفريل 1937. نقلا عن الجابري محمد صالح، الأدب الجزائري المعاصر، ص 73.
- ¹⁸ حمزة بسو، مطبوعة بيداغوجية في مادة تاريخ الأدب الجزائري المعاصر، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، 2021/2022 (مخطوط).
- ¹⁹ محمد العيد آل خليفة، ديوان محمد العيد آل خليفة، ص 307.
- ²⁰ ينسبها البعض لشاعر مجهول كما فعل الدكتور "ركيبي عبد الله" في كتابه "دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث" في حين يتفق آخرون كثيرون ومنهم الأستاذ "قاسم آيت بالقاسم مولود" في تقديمه لديوان إلياذة الجزائر على أنها للشاعر مفدي زكريا.
- ²¹ صحيفة "الصباح"، 22 مارس 1958. نقلا عن محمد صالح الجابري، الأدب الجزائري المعاصر، ص 93.
- ²² المرجع السابق، 14 ماي 1958. (قيلت في الذكرى الثالثة لاندلاع الثورة ولكن لم تنشر إلا في هذا التاريخ لأن الشاعر كتبها آنذاك وهو بالسجن).
- ²³ عمر بوقرورة، الغربية والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945-1962)، (د.ط)، منشورات جامعة باتنة، باتنة، (د.ت).
- ²⁴ ينظر محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت).
- ²⁵ حسن فتح الباب، زكريا مفدي شاعر الثورة الجزائرية، (ط1)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1997.
- ²⁶ صحيفة الندوة، نوفمبر 1956. نقلا عن الجابري محمد صالح، الأدب الجزائري المعاصر، ص 92.
- ²⁷ عبد الحميد هيمة، البنيات الأسلوبية في الشعر الجزائري المعاصر، (ط1)، دار هومة، الجزائر: 1998، ص 06.
- ²⁸ يؤكد معظم الدارسين أن أول المقدمين على تجربة الشعر الحر: أبو القاسم سعد الله في قصيدة "طريقي" المنشورة في جريدة البصائر بتاريخ 23 مارس 1955 (العدد 313).
- ²⁹ شلتاغ عبود شراد، حركة الشعر الحر في الجزائر، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1985، ص 73-74.
- ³⁰ مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، دراسة وشرح: الطاهر مريبعي، (ط1)، دار المختار للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر: 2009، ص 4. (ط1)،
- ³¹ المرجع نفسه: (مقطوعة 52)، ص 57.
- ³² أبو الحسن علي بن صالح، ديوان أبي الحسن علي بن صالح، ص 122.

6. قائمة مصادر البحث ومراجعته:

- ابن منظور، معجم لسان العرب، (ط1)، دار الحديث، القاهرة: 2013.
- توفيق مرسي خليل ، معجم الإرشاد، (ط1)، دار الإرشاد للنشر شركة ابن باديس للكتاب، سوريا: 2001.
- عبد الله ركيبي ، الشعر في زمن الحرية، (ط1)، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر: 2009.
- عبد المالك مرتاض ، المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية، (د.ط)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2010.
- غالي شكري ، أدب المقاومة، ج3، (د.ط)، دار المعارف، مصر: (دت).
- عبد المنعم مجاهد ، جماليات الشعر العربي المعاصر، (ط1) ، دار الثقافة، القاهرة، 1997.
- محمد العيد آل خليفة ، ديوان محمد العيد آل خليفة، (د.ط)، دار الهدى، الجزائر، 2010.
- أبو الحسن علي بن صالح، ديوان أبي الحسن علي بن صالح، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- إسماعيل عز الدين ، قضايا الشعر العربي المعاصر، (د.ط)، المنظمة الوطنية للثقافة والعلوم، تونس، 1988.
- أحمد محمد عطية ، البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة، (د.ط)، وزارة الثقافة السورية، سوريا، 1977.
- أحمد سحنون ، الديوان، (دط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1980
- محمد صالح الجابري ، الأدب الجزائري المعاصر، (ط1)، دار الجيل، تونس، 2005.
- محمد الهادي السنوسي الزاهري ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، (ج1)، (ط2)، دار بهاء الدين، الجزائر: 2007.
- عمر بوقرورة ، الغربية والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945-1962)، (دط)، منشورات جامعة باتنة، باتنة: (دت).

- محمد طمار ، تاريخ الأدب الجزائري، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (دت).
- حسن فتح الباب ، مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، (ط1)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة: 1997.
- عبد الحميد هيمة ، البنيات الأسلوبية في الشعر الجزائري المعاصر، (ط1)، دار هومة، الجزائر: 1998.
- شلتاغ عبود شراد ، حركة الشعر الحر في الجزائر، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1985.
- مفدي زكريا ، إلياذة الجزائر، دراسة وشرح: الطاهر مريبعي، (ط1)، دار المختار للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- حمزة بسو ، مطبوعة بيداغوجية في مادة تاريخ الأدب الجزائري المعاصر، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2، 2022/2021 (مخطوط).